ضريبة الجمال

للأستاذ عباس محمود العقاد

الشاطئ عامر ولكنه ليس بالمزدحم ، والبحر مائج له زئير ، والهواء هائج له صفير ، والراية السوداء كالقافية المحزنة تتكرر على مسافات متساويات أو متقاربات ؛ قافية محزنة والقصيده مفرحة تضج بالحركة والحياة ! ... وهذا من عجيب النظم فى شعر البحار والحمامات !

وإذا اتسع الأفق أمام العينين حتى كأنهما تنظران إلى مكان واحد ، وتجاوبت الأصداء على الأذنين حتى كأنهما قد كفتا عن السماع بعد طول التكرار ، فهنالك تنطلق الخواطر شتاتاً كما تنطلق خواطر الأحلام بعد تعطيل السمع والنظر ، فهى تارة تستقصى إلى ما وراء الأعماق ، وتارة تستقرب فلا تتجاوز أدنى المحسوسات ، مما علق بالذهن قبيل لحظات معدودات

وهكذا جلست أرقب الشاطئ وكأننى أحلم بما أراه . ومن حق الشاطئ وايم الله أن يحسب فى عداد الأحلام

ها هنا وها هناك تماثيل من خلق الله فى المعرض الحافل المتجدد : بعضها ولا ريب تحفة من تحف الخلق والتكوين ، وبعضها ولا ريب لازم للمناوبة بين شعور الإعجاب وشعور الرثاء ، أو للمناوبة بين إبداء المحاسن وإبداء العيوب

نعمة جزيلة وأى نعمة هذا الجمال الذى لا يقوّم بمال

نعمة يستمتع بها أصحابها وغير أصحابها ، وربما كان نصيب لابسيها دون نصيب الناظرين إليها ، لأنهم يعرضونها ويعطونها والناظرون هم الآخذون

بل هم حريصون على عرضها وإعطاء العيون منها كل نصيب تشتهيه

وإلا فما بال هؤلاء العارضين قد تهيأوا لنزول الماء والماء لا يقبل النازلين فيه !

سيقولون : للشمس لا للبحر ! ... لا تصدقهم ! ... فالشمس أيضاً من وراء سحاب ، قلما تسفر من ذلك الحجاب

إنما يتهيأون لحمام من أشعة النظر لا من أشعة الشمس ولا من أمواج الماء ، ويا له من حمام مريء على الجمال

* * *

وكنت حديث عهد بالضرائب ولجاج الموازنة بين الموارد والمصروفات

وبشاء الحلم أن يستقرب فى هذه المرة فيسنح لى خاطر كأسرع ما يكون وأقرب ما يكون :

ما للدولة لا تشارك الجميل فى نعمة جماله كما تشارك الغنى فى نعمة ثرائه والصانع فى نعمة ذكائه أو عضلاته !

كل نعمة فللدولة منها حصة . فما بال الجمال لا يحسب من النعم عند مصلحة الضرائب الأميرية ؟ أو ما باله يحسب من النعم ولا يدخل فى الحساب ؟

علم الله لو فرضت ضريبة الجمال لجمعت الدولة الملايين واستراحت من المحصلين ، لأن أصحاب الضريبة يؤدونها عن يد وهم شاكرون ،

فإذا خلصوا بما معهم من المدينة والنهر واقتعدوا ظهور المطى ونشقوا نسيم الحقول انبسطت المشاعر وانطلقت الحناجر فخاضوا فى أحاديث السوق ، وأفاضوا فى أعاجيب البندر ، وادعى كل منهم أنه كان أبصر بالبضاعة وأخبر بالسعر وأقدر على الخواجة !

وكان شباب القرية قد انتشروا مع الظلام فى طريق العودة يلقون العير ويكفونها مخاوف الليل . وكان نساء النائبين وأطفالهم يتراقصون على أنغام المنى ، ويتسمعون على السطوح لجب القافلة . فإذا دخلت البلد قابلوها بالزغاريد والأناشيد ، وقضت (الحارة) معظم الليل فى أكل البلح ومص القصب وتساق الحديث . ثم يصبح الصباح فتفتح الحقائب وتوزع الكسى وتفرق الهدايا ، وتفرق هذه الأسر فى فيض من الفرح والمرح مدى أسبوع !

* * *

الواقع يا صديقى أن السرعة محنة هذه الحضارة . وذلك أنها وفرت على الناس الصحة وأخرت عنهم الموت حتى نموا وكثروا ، فهم يتزاحمون على موارد الرزق ، ويتسابقون إلى مظان القوت ، فأصبح من لا يجعل جناحيه فى رجليه لا يسبق ، ومن لا يصل بالعمل يومه لا ينال !

عباس محمود العقاد

ويشكون إن قل نصيبهم منها . . . ويحمدون الله أن خرجوا بها مثقلين مرهقين

وخطر لى قلم المراجعة والمظالم وما يتوالى عليه من الشكايات والمراجعات

أفلانة تطالبها الدولة بألف جنيه ضريبة جمال ولا تطالبنى أنا بأكثر من بضع مئات ؟ من هو هذا الأعمى الذى ترتضيه الحكومة عاملاً لها فى لجنة التقدير ؟ ومن هى هذه « الضعيفة الذليلة » التى تذعن لهذا الحيف وتصبر على هذا الظلم المبين ؟

وخطر لى ما قبل الشكاية وقبل الرجوع إلى لجنة المراجعة

خطر لى الزوج المسكين وهو داخل على الزوجة العابسة المتحفزة للشجار : تشاجره هو لأنها لا تجد بين يديها الموظف « الأعمى » الذى ظلمها بذلك النصيب من الضريبة ، ولا تأمن العقبى من « التعدى فى أثناء تأدية الوظيفة » والإصرار على تطفيف ذلك النصيب المزور .

— ما بالك يا عزيزتى مهمومة البال ؟

— مالى أنا ؟ بل قل مالك أنت بين الأزواج ؟ قل مالك أنت بين الرجال ؟ قل مالك أنت بين خلق الله ؟

— أنا ؟ وما خطبي يرحمك الله يا أمة الله ؟

— نعم أنت ! ... أنت دون غيرك ! ... أنظر إلىّ ! افتح عينيك فى وجهى . افتحهما جيداً وقل لى : هل أنا دون فلانة فى الحسن والرشاقة والفتنة والأناقة ؟ هل أنا دميمة ذميمة أم هى خيبتى فيك — واحسرتاه — هى التى خيبتنى بين النساء ؟

وبعد بكاء واستغراق فى البكاء

وبعد جفاء وإمعان فى الجفاء

وبعد مائة سؤال ومائة جواب تظهر الحقيقة فإذا هى « تظلم من قلة الضريبة » وإرغام للزوج المسكين على المطالبة بمضاعفتها فى غمضة عين ، وهو هو الذى « يغرمها » ويكتوى بنارها . . . وإلا فليس هو برجل بين الرجال ، وليست هى بزوجة ترضاه بهذه الحال !

ويخيل إلى صاحبنا أنه يخدعها عن هذا الطلب ببعض الوعود وبعض الهبات ، فيعود إلى المراوغة والإغراء :

— يا عزيزتى ! يا زينة النساء . . . يا أجمل من خلق الله : أتهمك هذه الفلانة وهى لا ترتقى إلى مقام الجارية تحت قدميك ؟ أليس أولى من بذل المال فى الضريبة المضاعفة حلية تزيدك جمالاً على جمال ، وحلة تنفردين بها بين الأتراب والأمثال ، وشارة تغار منها فلانة ، وقنية بعد ذلك باقية للحفظ والصيانة ؟

ثم تشتد الحيرة بالمباركة فلا تدرى أى الحسنين تختار ، ولا بد أن تستقر ولا سبيل إلى قرار

هنا الحلية والحلة وما رفضتهما قط بنت من بنات حواء

وهنا الجمال بشهادة الحكومة واعتراف القانون وتسجيل الأوراق الرسمية ، وهى حجة تخرس اللسان ، ولا تدفع بالبرهان مشكلة !

ولا طاقة للمباركة بحلها

فليحلها الزوج المسكين ، بالجمع بين الحسنيين !

***

خطرت لى هذه الخواطر ، وتمثلت القائمين على خزانة الدولة بين إغراءين كالذين حارت فيهما المباركة صاحبة المظلمة من تطفيف الضريبة

فماذا يصنعون ؟

هل ينتفعون بإقبال الناس على البذل والإعطاء فيقبلون من كل باذل ، ويستجيبون لكل طلب ، ويشهدون لكل راغبة فى شهادة ؟

أو يؤثرون أمانة الذوق وصدق النظر ونصفة الفن على ضخامة المورد وموازنة الأبواب ؟

مشكلة !

لكنها ليست بالمشكلة العويصة فيما أحسب ، وليست بالشكلة التى تحل بالجمع بين الأمرين فيما أعتقد . . . لأن الأمانة فى تقويم الجمال ، سر قابل للاستغلال ، وباب جديد لفرض الضرائب على الخاطبين السائلين ، وعلى مسابقات الجمال فى غير حاجة إلى محكمين ، وعلى أفانين شتى قد تظهر بعد حين ، فإن فات الخزانة ريح الطمع فان يفوتها الربح من هذه الأفانين .

عباس محمود العقاد